النص الحجاجي في "البيان والتبيين" للجاحظ – دراسة في نص من كتاب العصا

The argumentative text in (Al- Bayan wa Al- Tabeen) by Al'Jaahidh – a study in a text from the book "The Stick"

ليلى جغام

جامعة محمّد خيضر – بسكرة (الجزائر) ، l.djegham@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/17 تاريخ القبول: 2022/04/26 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص:

نسعى في هذه المقالة إلى تناول نموذج نصّي قديم مطبّق عليه نظرية حديثة، لذلك عنوناها بـ (النص الحجاجي في "البيان والتبيين" للجاحظ – دراسة في نص من كتاب العصا)، ومن أجل تحقيق هذه الدراسة قمنا بإتباع تحليل حجاجي يتأسّس على عدد من الخطوات، التي تشمل جميع أجزاء النص، للوصول إلى غايات يتضمنها بناء النص ومحتواه، وعلى اعتبار ذلك قسمنا هذه الورقة البحثية إلى مجموعة من العناوين والعناصر، جاء التفصيل فيها في مضمون هذه المقالة .

كلمات مفتاحية: النص؛ الحجاج؛ الجاحظ؛ العصا؛ التحليل .

Abstract:

In this article, we seek to address an old textual model on which a modern theory is applied, so we titled it (the argumentative text in "Al-Bayan wa Al-Tabeen") by Al'Jaahidh –a study in a text from the book "The Stick". In order to achieve this study, we followed an argumentative analysis based on a number of steps which included all parts of the text, to reach the goals included in the construction of the text and its content, and considering that we divided this research paper into a set of titles and elements, the details of which came in the content of this article .

Keywords: Text ; Pilgrims ; Jaahidh ; Stick ; Analysis .

المؤلف المرسل: ليلى جغام، **الإيميل:** l.djegham@univ-biskra.dz

1.مقدمة:

يتحدّد غرضنا في هذه المقالة في تناول نص من النصوص القديمة، تناولا يمكن القول عنه أنّه حديث، مراعاة منا لموضعه في ما ورد فيه من نصّه الأصل، إذ كان حجّة وبرهانا يستدلّ به في موضعه ذاك، ولزاما لذات الموضع كان تناولنا لهذا النص، الذي هو جزء من نص أكبر عنون في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ بكتاب العصا، والذي شغل مساحة كبيرة من الجزء الثالث من الكتاب .

وقد جعلنا هذه المقالة في عناصر؛ جاء أوّلها في التعريف بالحجاج عند أهل الاختصاص، وتضمّن ثانيها خصائص النص الحجاجي، واحتوى ثالثها وصفا لما ورد في كتاب العصا، وما كان موضعه من كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، وتعلّق رابعها بتطبيق مجموعة من الإجراءات المنهجية لتحليل النص المختار نموذجا لهذه الورقة البحثية وفق طريقة حجاجية .

2. مفهوم الحجاج :

جاء في المعاجم أنّ الحجاج في اللغة من حاجّ، قال ابن منظور: «حاججته أحاجّه حجاجا ومحاجّة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها [...] وحاجّه محاجّة وحجاجا نازعته الحجة [...]، والحجّة الدليل والبرهان»(منظور، 1997م، صفحة 27 - 28)، وورد في مختار الصحاح أن : «الحجة هي البرهان، وحاجّه فحجّه من باب ردّ؛ أي غلبه بالحجة، وفي مثل: لجّ فحجّ فهو رجل محجاج بالكسر أي جدل، والتحاجّ التخاصم، والمحجّة بفتحتين جادّة الطريق»(الرازي، 1967م، صفحة 122- 123).

ولعلّ معناه في الاصطلاح مختلف فيه، غير أنّنا يمكن أن نذكر لذلك محدّدين أساسين اتفق عليهما كل من درس الحجاج؛ الأوّل هو كونه خطابا إقناعيا، أي أن هدفه التأثير في المتلقي، إما لتدعيم موقفه، وإما لتغيير رأيه وتبني موقف جديد (صكوحي، 2003م، صفحة 13) .

وهذا المحدد لا يتعلّق بالشكل اللغوي أو بمحتوى الخطاب، ولكن بوظيفته الكلية، فالنص الحجاجي لا يمكن أن يعرف من خلال خصائص شكلية لغوية (مثلما يفعل بالأشكال الخطابية) ، إذ أنه يمكن أن يتواجد مع الوصف أو مع السرد أو مع الشعر أو مع غيرها (راد، 2003م، صفحة 13) .

ويعرّف الحجاج في محدّده الثاني بأنه بعد جوهري في اللغة ذاتها؛ مما ينتج عن ذلك أنه حيثما وجد خطاب العقل واللغة فإن ثمة إستراتيجية معينة نعمد إليها، لغويا وعقليا، إما لإقناع أنفسنا وإمّا لإقناع غيرنا، وهذه الإستراتيجية هي الحجاج ذاته، وهي تستمد خصوصيتها وقيمتها من الحقل الذي تتحقق فيه، ويعطيها الشرعية، وقد يكون هذا الحقل هو الحياة اليومية للناس وقيمهم، أو يكون هو الفكر، والتفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا وتجريدا (أعراب، الحجاج والإستدلال الحجاجي – عناصر إستقصاء نظري، 2001م، صفحة 99 – 100).

فالحجاج إذن طريقة في الاستشهاد والتمثيل تهدف إلى التأثير والإقناع، إذ هو « خطاب صريح أو ضمني يستهدف الإقناع والإفهام معا، مهما كان متلقي هذا الخطاب ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك» (أعراب، الحجاج والإستدلال الحجاجي – عناصر استقصاء نظري، 2001م، صفحة 99)، فهو في أبسط تعاريفه، وأكثرها شيوعا خطاب هدفه التأثير في المتلقي، وإرادة إذعانه لرأي أو موقف ما، أي إقناعه به، وتوجيهه للعمل وفقه .

3.خصائص النص الحجاجي :

والبحث في خصائص النص الحجاجية هو بحث ينطلق من بنية النص، إذ هذه البنية تتميّز بعدد من الصفات التي تجعل من النص متفرّدا بين أنواع النص الأخرى (كالوصفي، والحواري، والخبري، والسردي ...)، وهذا لا يعني البتة أنّ النص الحجاجي ينشأ منفصلا عن هذه النصوص، بل قد يتزاوج مع أحدها في بنية واحدة، أو يتواجد مع تميّزه بجوار هذه النصوص، فيكون مثلا مع السرد، ومع الوصف، ومع الخبر، ومع الحوار، وفي ذات الوقت يصنع صورته الخاصة .

فالنص الحجاجي ذو غاية محدّدة، يروم حمل متلقيه على الإيمان بها أو تبنيها أو العمل بمقتضاها، ومن المنطقي أن يكون موضوعه خلافيا، ليس على مستوى الموضوع فحسب، ولكن أيضا على مستوى البناء الذي لا ينفصل عن موضوعه (عيد، 2013م، صفحة 43)، وذلك الخلاف هو « المحرّك الفاعل الذي يوجّه الموضوع ويحدّد الاختيارات اللغوية والمستويات الأسلوبية والبناء الكلي للنص، وهذا اشتراط جوهري أولي » (عيد، في حجاج النص الشعري ، 2013م، صفحة 43) .

وجاء عند أوشان أن النص الحجاجي يتحدّد ببناء نصي متميّز؛ حيث يتركّب من جمل تربط بينها علاقات، تقوم على نوعين من الربط، إمّا **ثنائي** بين جملتين، أو **جمعي** بين أكثر من ذلك، ويطلق على الأول ربط مباشر قريب، ويسمى الثاني بغير المباشر والمتوسط الذي يكون بين جمل متباعدة عن بعضها (أوشان، 2013م، صفحة 34 - 35) .

كما يتّسم النص الحجاجي بسمتين تتصل إحداهما بالأخرى؛ الأولى **الاقترانية**، وتعني الارتباط العام والكلي داخل النص، والذي تتماسك فيه كل عناصر البناء النصّي، جملا وروابط وعلاقات، وأما السمة الثانية فهي ما يطلق عليه **الاستدلالية**، وهي ما يؤسّس اقتران عناصر النص ككل بنيوي (أوشان، ديداكتيك التعبير والتواصل وتدبير التعلّمات: الصورة -الحجاج- المقارنة - الوصف، 2013م، صفحة 35).

وتتوزّع أشكال الاستدلال في النص الحجاجي لاعتبارين، ينتج كل اعتبار صنفين من الاستدلال؛ **فالاعتبار الأول** يكون الاستدلال فيه إمّا تدريجي، يتمّ الانتقال فيه من المقدّمة إلى النتيجة، وإمّا تقهقري يحدث الانتقال فيه من النتيجة إلى المقدّمة، وأمّا **الاعتبار الثاني** فينتج عنه الاستدلال الظاهري، وهو الذي يصرّح فيه بالدلالة وبالعلاقات بين عناصر الاستدلال، والاستدلال الإضماري، وتكون فيه الدلالة مضمرة، وكذلك العلاقات بين عناصر الاستدلال (لوشان، 2013م، صفحة 35).

ونحن في ورقتنا البحثية هذه نحاول أن نستبين ذلك من خلال تطبيق عدد من الإجراءات المنهجية لتحليل نصّنا موضوع الدراسة، وهو جزء من نص أكبر عنونه الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" **بكتاب العصا** .

4.موضع كتاب العصا من مدونة الجاحظ "البيان والتبيين" :

والمقصود بهذا العنصر من البحث هو تحديد موضع كتاب العصا من مدونة الجاحظ "البيان والتبيين"؛ إذ الملاحظ أنّه يحتلّ مساحة واسعة من المدونة، خاصة في الجزء الثالث منها، فنجد الحديث عنه يبدأ في صدارة الجزء وفاتحته، حيث يقول صاحب المدونة، عمرو بن بحر الجاحظ في فاتحة الجزء : « هذا أبقاك الله الجزء الثالث، من القول في البيان والتبيين، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطّعات المتخيّرة، وبعض ما يجوز في ذلك من

أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخبة . ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية وبمطاعنهم على خطباء العرب: بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام... » (الجاحظ، 1418هـ - 1998م، صفحة 5 - 6).

والمخصرة؛ هي كلّ ما يتوكأ عليه كالعكّازة والعصا، والأخيرة موضوع لمطعن من مطاعن الشعوبية بحق العرب، وما ذكرها في هذا الموضع من مدونة الجاحظ، واحتلالها لهذا المكان منها إلا دفاعا من الجاحظ على حق العرب، وردا منه بشأنهم، « ولو لا ما جاء فيه من إشارة إلى مطاعن الشعوبية على العرب في ما وقعوا فيه، على حدّ قولهم، من خطل الرأي وسوء التقدير في عقد الأواصر بين تأتي القول والاقتدار عليه والمسك بالعصي والقسي والتزين بالمخاصر، ما انتبه المهتمون بمؤلفات الجاحظ إليه ولكان حظّه حظّ كثير من أبواب البيان والتبيين لا وجود لها إلا من جهة تظافرها لبناء صورة الكتاب » (النويري، 2003م، صفحة 05) .

وذاك دليل على أنّ ذكر العصا على ما ذكرت عليه في موضع الدفاع سبب في انتباه المهتمين بدراسة آثار الجاحظ، فقد « استغلّت الدراسات هذا الحيّز استغلالا واسعا وانتبهت إلى أنّ هذا المطعن الأول لم يكن إلاّ مدخلا إلى مطعن آخر أبعد مدى وأقدح ضررا وهو سلب العرب القدرة على البيان والمباعدة بينهم وبين ما كانوا يعتبرونه معقد تفوقهم ومبرّر غلبتهم وسلطانهم ... » (النويري، البلاغة وثقافة الفحولة – دراسة في كتاب العصا للجاحظ ، 2003م، صفحة 05)، أي بلاغة العرب، وبيانهم.

وهذا وجه من مجموع وجوه مثّلتها العصا في دفاع الجاحظ ضدّ مطعن الشعوبية، فوجود كتاب العصا في مدونة الجاحظ «سعيا في إعادة ترتيب الأمور ترتيبا يبوئ البلاغة العربية منزلتها بين بلاغات الأمم، ينافح عنها، ويناضل دونها، ويقيم الأدلّة على ما أدركته في المزية من محل، شقت منظومة القيم الطريق إليه، وكانت خصيصة أمة موعودة بنصّها المعجز ومضمار فخرها الذي ضاق عن سائر الأمم» (النويري، البلاغة وثقافة الفحولة – دراسة كتاب العصا للجاحظ، 2003م، صفحة 12)، وقد رسم الجاحظ لصورتها تلك ما يعلي شأنها ويرفع من مكانتها، فجعلها رمزا للنبوة، في إشارة إلى عصا سليمان وعصا موسى وعنزة الرسول مُحَمَّد صلّى الله عليه وسلّم، وذكر لها شؤونا أخرى مما لا يتّسع المقام لذكره وتعداده، ونحن إذ ذاك نأخذ لها رواية مما ذكر، ونفصّل القول فيها وصفا وتحليلا .

5.التحليل الحجاجي لنص من نصوص كتاب العصا :

وتتهيكل إجراءات ذلك وفق عدد من المراحل أو النقاط التي تكون عادة محور بناء النص موضوع الدراسة، والتي يمكن تحديدها في ما يأتي:

1.5.تحديد السياق النصّي:

يتموضع النص موضوع الدراسة ضمن سياق نص أكبر عنونه الجاحظ بكتاب العصا، الذي شغل الدفاع عنها « الحيّز الأوفر من الكتاب فقد انطلق من الصفحة الثلاثين وامتدّ إلى الصفحة الرابعة والعشرين بعد المائة . وإنّ عدد الصفحات لدال على ما أولاه أبو عثمان المسألة من أهمية [...] ومهما يكن من أمر فإنّ ما وسعه إنجازه أبرز حرصه على أن يحيط بالعصا من حيث هي ومن حيث منزلتها لدى من ثبتت منزلته ومن حيث الانتفاع بها... » (النويري، البلاغة وثقافة الفحولة – دراسة في كتاب العصا للجاحظ، 2003م، صفحة 37) .

والنص حكاية يرويها الجاحظ على لسان غيره قائلا : « ثمّ قال الشرقيّ : ولكن دعنا من هذا؛ خرجت من الموصل وأنا أريد الرّقّة مستخفيا، وأنا شاب خفيف الحاذ، فصحبني من أهل الجزيرة فتى ما رأيت بعده مثله، فذكر أنّه تغلبي، من ولد عمرو بن كلثوم، ومعه مزود وركوة وعصا، فرأيته لا يفارقها، وطالت ملازمته لها، فكدت من الغيظ أرمي بها في بعض الأودية... » (الجاحظ، البيان والتبيين ، 1418هـ – 1998م، صفحة 47)، ودارت الرواية حول منافع العصا، التي أظهرها التغلبي، وأدركها وعدّدها الشرقي .

2.5.تحديد موضوع الحجاج :

وتحديد الموضوع هنا لا يرتبط بالرواية أو النص موضوع الدراسة فقط، بل ذاك جزء من كل، لأن هذه الرواية هي جزء من مجموع أخبار وروايات وأشعار وآيات وأحاديث نبوية تشير إلى فضل العصا وعلو شأنها، وقد أشار النويري إلى ذلك بقوله : « من الحكايات التي اعتمدها الجاحظ في إبراز مناقب العصا تلك التي ساقها عن الشرقي في خبره عن رحلة كانت له مع فتى تغلبي من الموصل إلى الرقة ؛ كان الأول فيها هو الراوية وثاني شخصيتين هما كل شخوصها . إلا إذا عددنا العصا الشخصية الثالثة إذ سرعان ما بدت محور الحكاية وغايتها في آن معا، كأنّها لم تكن إلا من أجلها... » (النويري، البلاغة وثقافة الفحولة – دراسة في كتاب العصا للجاحظ، 2003م، صفحة 51).

فالعصا في هذا النص هي محور الحجاج وقضيته، وكل ما فعله التغلبي على مدار الرحلة من استثمار للعصا هو محاولة منه لجلب انتباه الشرقي لنفع العصا وجمّ فوائدها، وهو الذي تذمّر لملازمته لها وحمله إيّاها، حتى وصل به الأمر أن أراد رميها في بعض الأودية أثناء الرحلة.

3.5.تحديد أطراف القضية:

صاحب الأطروحة المقترحة	صاحب الأطروحة المدحوضة	الطرف الثالث (الحكم)
الجاحظ	الشرقي	التغلبي

وبيان ذلك أنّ الجاحظ هو صاحب الأطروحة المقترحة، أي الإعلاء من قيمة العصا، والرفع من شأنها، ردا على مطعن الشعوبية ضدّ العرب وإفحاما لها، والملاحظ أنّ الشرقي يمثّل الرأي المدحوض، أي رأي الشعوبية، مما ترى من أنّ العصا في عرف العرب، لأنّهم أهل بداوة، وقد تعوّدوا حملها في الرعي والجري وراء دوابهم، فالتصقت بهم، ولا علاقة لها تذكر بالبلاغة ولا بقول الشعر وإلقاء الخطب.

وأمّا الطرف الثالث، وهو الحكم، ويمثّل شخصية التغلبي، فقد اتخذه الجاحظ دليلا وشاهدا ومعينا له على إثبات ما يريد إثباته في ذهن مخاطبه، إذ كل ما قام به من أفعال ضمن الحكاية، والتي هي تسلسل لأحداثها، إثبات للقضية المقترحة من قبل الجاحظ، ودحض لما يريد دحضه من رأي الشعوبية، وربما قلنا أنّ التغلبي في حكايته هو الجاحظ في موقفه، وقد نتفاءل أكثر فنقول أنّها حكاية صغرى ضمن حكاية كبرى، تعكس كلّ أطرافها، فالتغلبي هو الجاحظ في موقفه، والشرقي هي الشعوبية في عنجهيتها وغرورها وطعنها في العرب، رسم لها الجاحظ من وراء الحكاية اقتناعا بموقفه، وتراجعا وإذعانا عمّا كانت تدّعيه .

4.5.تكثيف الموضوع :

ويتحدد هذا العنصر في مجموعة من الأسئلة ينبغي الإجابة عنها، وهي كما يأتي:

- ما هي الأطروحة التي يرفضها المرسل؟
- ما هي محتوياتها؟
- ما الحجج التي تستند عليها الأطروحة المدحوضة؟ كم عددها؟
- ما هي الأطروحة التي يبرهن المرسل على صدقها؟
- ما هي الحجج التي يقدّمها؟

وفي سبيل الإجابة على ذلك نقول على الترتيب:

- الأطروحة التي يرفضها المرسل (الشرقي) هي كون العصا لها منافع وفوائد.
- ما يقدّم من إشارات لفضل العصا وعلو شأنها.
- الحجج التي تستند عليها الأطروحة المدحوضة هي كلّ ما قدّمه الجاحظ في نصّه من فوائد للعصا، برهن عليها التغلبي، وعدّدها الشرقي ثمانية خصال، وربما كانت أكثر من ذلك في ما ورد في الرواية، حيث يقول الشرقي في ختام النص: «والله لو حدّثتك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لما استنفذتها» (الجاحظ، البيان والتبيين، 1418هـ - 1998م، صفحة 48).
- عدم وجود منافع تذكر للعصا.
- رفض وجود العصا بين حاجات التغلبي، ومحاولة رميها أكثر من مرّة، والدليل على ذلك قوله: «... فصحبني من أهل الجزيرة فتى ما رأيت بعده مثله، فذكر أنّه تغلبي، من ولد عمرو بن كلثوم، ومعه مزود وركوة وعصا، فرأيته لا يفارقها، وطالت ملازمته لها، فكدت من الغيظ أرمي بها في بعض الأودية... » (الجاحظ، البيان والتبيين ، 1418هـ - 1998م، صفحة 45).

5.5.الخطاطة الحجاجية :

الأطروحة المدحوضة	عمليات الحجاج	الأطروحة المقترحة
كون العصا دون فوائد تذكر	فوائد العصا التي حاول التغلبي إظهارها من خلال توظيفه للعصا في عدد من المهام والمواقف	العصا ذات فوائد عديدة لا تحصى

6.5.البناء النصّي (بناء الحجاج) :

المقاطع النصية	حيّزها النصّي	أطروحتها	الحجج والأدلّة
المقطع الأول	من بداية النص « ثم قال الشرقي ... » إلى «ومعه مزود وركوة وعصا»	وضع المتلقي في جو الحادثة أو الرحلة .	* ذكر اسمي الشخصين . * ذكر نقطتي انطلاقها والوصول إليها .

			* ذكر متاع التغلبي .
المقطع الثاني	من « فرأيته لا يفارقها...» إلى « فكدت من الغيظ أرمي بها في بعض الأودية ... »	تذمر الشرقي من اهتمام التغلبي بالعصا .	* محاولة الشرقي رمي عصا التغلبي في بعض الأودية أثناء الرحلة . * استهانته بشأنها . * ضحكه واستهتاره لاهتمامه بها .
المقطع الثالث	من « فكنّا نمشي فإذا أصبنا دوابّ ركبناها ...» إلى « ثمّ كلّمه من جوف شجرة ولم يكلّمه من جوف إنسان ... »	سؤال الشرقي التغلبي عن شأن العصا وجوابه بتمثيله لعصا موسى .	*استدعاء قصة سيّدنا موسى .
المقطع الرابع	من « قال الشرقي : إنّه ليكثر من ذلك وإني لأضحك متهاونا بما يقول... » إلى « وإذا أظرف الناس كلّهم وأكثرهم أدبا وطلبا»	استهانة الشرقي بكلام التغلبي عن العصا، وأفعال التغلبي وانتباه الشرقي لمقاصده من ذلك	*ضحك الشرقي واستهزائه .
المقطع الخامس	من « فخبّرته بالذي أحصيته من خصال العصا... » إلى « والله لو حدّثك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لمّا استنفذتها... »	تعداد الشرقي لمناقب العصا التي ضمّنها التغلبي أفعاله خلال الرحلة، واقتناعه أخيرا بفوائدها .	*قول الشرقي عند كل حادثة : هذه واحدة ... هذه ثانية ...

7.5. وسائل الإقناع:

المعجم	تنوع معجم النص بين الأسماء والصفات، لأنّه عبارة عن وصف لرحلة قام بها الشرقي مع التغلبي، سعى فيها الأول إلى القدح في العصا، وبذل الثاني جهده لبيان فوائدها، فنجد أسماء الحيوانات (دواب، حيّة، أرنب، حمار)، وأسماء العصا وبعض صفاتها (عصا، عويد، وتد، ...)، وأسماء الأمكنة (الموصل، الرّقة، الأودية، الخان، الواد المقدّس، البقعة المباركة، البيوت، البيعة أي كنيسة النصارى) ...
التركيب	تبدو تراكيب النص منتظمة تعبّر عن تسلسل أفكاره الرئيسية والفرعية، حيث نلحظ ذكر العصا في بدايته، باعتبارها إحدى حاجات التغلبي، ثم إفرادها بالحديث، وجعلها محور الحادثة ومدارها في وسطه، لتكون الخلاصة للإقناع بفائدتها، ونفي القدح فيها.
أدوات الربط	تختلف أدوات الربط في الحجاج، باعتبار أنّ اللغة حجاجية بطبعها، ونجد من أدوات الربط مثلا : الترتيب (واحدة، ثانية، ثالثة ...)، والتوضيح (مثله،كأنّه ...)، الشرط (لو، إذا، لو أنّ ... لما، لو ... لما، ...)، الاستدراك (لكن، بعد أن ...)، العطف (الواو، الفاء، حتّى، ثمّ، ...)، التوكيد (قد، أنّ، إنّ، القسم، اللام، ...)، الإشارة (هذه، تلك، ...)، العموم (جميع ذلك، كلّهم، ...) ...
الأساليب	غلب على النص الأسلوب الخبري لأنّه المناسب لغرضه، فهو وسيلة الحكي وأداته، ولم يغب مع ذلك الإنشاء الطلبي وغير الطلبي، من مثل النفي والأمر .
الصور البلاغية	كاد النص يخلو من الصور البلاغية، وهذه ميزة نص الحكاية في الغالب، لولا وجود بعض التشابيه البليغة، واستعارة واحدة (سكن القرم) .
التجانس الصوتي	لم يحفل صاحب النص كثيرا بالتجانس الصوتي لطبيعة الغرض، غير أنّه لأهمية التجانس في إذعان المتلقي، وهي الغاية التي كان يرمي صاحب النص إلى تحقيقها، وجدناه يوظّف بعضا منه، ومن مثل ذلك الجناس الناقص بين (استراح، أراح، المراح) .
الضمائر	تنوّعت الضمائر بين المتكلّم والغائب، فكان المتكلّم هو الشرقي، والغائب هو التغلبي، وعلاقتهما ببعضهما هي علاقة رفيقي سفر، هذا ظاهر الدلالة، غير أنّ باطنها في حدود تأويلي، المتكلّم هو الشعوبية، والغائب هو الجاحظ، الذي كان من خلال ذلك يأمل أن تقتنع الشعوبية في الأخير بأهمية العصا كما اقتنع الشرقي .
نظام الأزمنة والأمكنة	تموضعت أغلب الأفعال المتضمنة في النص في الزمن الماضي، مع وجود بعض الإشارات إلى المضارع والأمر أحيانا، وكانت الأمكنة شاملة لكل تنقلاتهما خلال الرحلة، انطلاقا من الموصل، إلى طريق

	الغابة، إلى الحانة، إلى منزل التغلبي .
علامات الترقيم	تضمن النص عددا من علامات الترقيم، وكثرت من بينها الفاصلة، وتراوحت العلامات الأخرى وجودا وغيابا، مع بعض مواضع النبر والإيقاع في النص .

8.5.بسط المسار الحجاجي للنص:

والقصد من هذا العنصر إبراز طريقة الطرح التي وظّفها صاحب النص، إذ نجد أنّ الأصل في هذا الطرح أنّه وقع بطريقة غير مباشرة، ولكن وردت إشارات كثيرة توحي بالغاية المرجوة من هذا الطرح، إذ كون العصا محور النص دليل على أنّ التركيز عليها مقصود من قبل صاحبه.

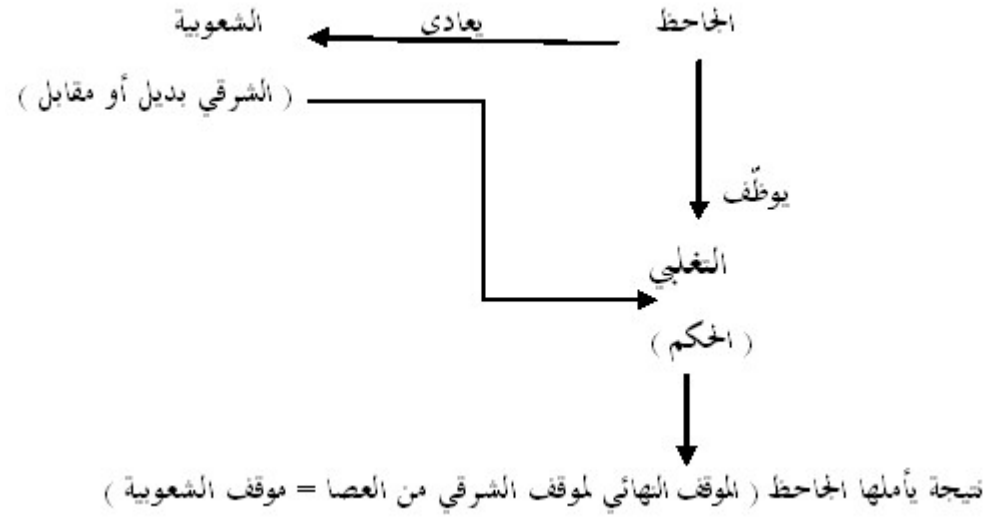

.

وما يشير إليه النص رسم تقريبي للعلاقة الظاهرة بين أطراف القضية، إذ الجاحظ، وهو صاحب النص الأصلي، يتخذ من الشرقي بديلا عن الشعوبية، الطرف الذي يناظره (يعاديه)، ويريد دحض حجّته، ويجعل من التغلبي حكما لتحقيق ذلك، وتراوده غاية يريد الانتهاء إليها، وهي الانتصار للعرب في حمل العصا، فيرسم أحداثا للحكاية تقوده في نهاية المطاف إلى ما يأمل، أي إذعان الخصم إلى الرأي المراد .

9.5.المؤشرات والأدوات الحجاجية :

ويتلخّص ذلك في صنفين، كلاهما تتضمنه الوسائل الإقناعية، فنجد ما يسمى **بالروابط الحجاجية**، وهو الصنف الأوّل؛ «وهي التي تربط بين حجّتين أو قولين أو أكثر، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الإستراتيجية الحجاجية العامة» (أوشان، ديداكتيك التعبير والتواصل وتدبير التعلّمات: الصورة – الحجاج –المقارنة– الوصف، 2013م، صفحة 43)، وهي أدوات الربط المشار إليها في الجدول الخاص بوسائل الإقناع.

أمّا الصنف الثاني فهو ما يسمى **بالعوامل الحجاجية**، «وتقوم بحصر تقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبا، قليلا، كثيرا، ما... إلاّ، وجل أدوات القصر...» (أوشان، ديداكتيك التعبير والتواصل وتدبير التعلّمات : الصورة – الحجاج– المقارنة – الوصف ، 2013م، صفحة 45)، وبعض ذلك حاضر في النص المدروس .

في حين أنّ الصنف الثالث هو **الاستعارة** «وتعتبر من الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلّم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، بل إنّها من الوسائل التي يستعملها بشكل كبير... » (أوشان، ديداكتيك التعبير والتواصل وتدبير التعلّمات : الصورة – الحجاج – المقارنة – الوصف، 2013م، صفحة 45)، بل من أقوى صور الحجاج الموظّفة عند أهل الاختصاص، ومن أكثرها فاعلية، رغم أنّ وجودها في هذا النص ليس بالكبير .

10.5.سمات الحجاج اللغوية :

وتتعلّق هذه السمات – حسب ما ورد عند الأغلب ممن تناولوا ذلك – بالسياق، والنسبية والإبطال (أوشان، ديداكتيك التعبير والتواصل وتدبير التعلّمات : الصورة – الحجاج – المقارنة – الوصف ، 2013م، صفحة 45)، والتفصيل في ذلك يتدرّج في النقاط الآتية :

أولا. السياق :

ويبدو السياق في النص المتناول ذا فاعلية، حيث يظهر للمطّلع أنّ الجاحظ يتّخذ من هذه الروايات والأخبار طريقا لإثبات حجّته على الشعوبية، وبيان ذلك أن يجعل جزء ليس بالهيّن من كتابه "البيان والتبيين" معنونا **بالعصا**، وخلال حديثه ذاك يسوق عددا من الأحاديث والأخبار والروايات الدالة على تعظيم شأن العصا، والإعلاء من مكانتها، إذ يتدرّج في الانتصار لها من أجل نفي ما نسب للعرب في صورتها، ويبلغ بها مبلغا كبيرا، فيجعلها رمزا للنبوة، وذلك ما جاء بعضه في هذا النص، حيث نجد التغلبي

يحاجج الشرقي بشأنها بتمثيله لقصة موسى عليه السلام، وهو ليس إلا صورة لحجاج الجاحظ، الذي كان بعصا موسى، وعصا سليمان، وعنزة الرسول الكريم عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

ثانيا. النسبية:

ونسبية هذا الحجاج تتعلّق تعلّقا كبيرا بسياقه، فيما أرى، لأنّ توظيف الحكاية في غير هذا السياق قد ينحرف بها عن غايتها الحجاجية تلك، كما ترتبط نسبية الحجج بمدى قوّتها، وقوّة إبطالها لبعضها، حسب ورودها، فبروز حجّة ما عن الأخرى تجعلها أقوى منها وأكثر حجّية، وذلك مثاله في ما حاول الجاحظ إثباته من خلال استدعائه لمختلف الأحاديث والأخبار بشأن العصا، فبعضها كانت له القوّة، خاصة ما تعلّق **بحجاج السلطة**، كما يدعوه أهل الحجاج، والذي يظهر جليا في أخبار الأنبياء، وآيات الذكر الحكيم .

ثالثا . القابلية للإبطال:

ويشار بشأن ذلك إلى أنّ «الحجاج اللغوي نسبي ومرن وتدريجي، وسياقي، بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق وحتمي» (أوشان، ديداكتيك التعبير والتولصل وتدبير التعلّمات: الصورة –الحجاج –المقارنة–الوصف، 2013م، صفحة 45)، والتحكّم باللغة هو تحكّم بالحجاج، لأنّها حجاجية بطبيعتها، فمن جعلها طيّعة في يده، أدارها كيفما شاء، ووظّفها لصالحه ولصالح حجاجه كيفما أراد، فقد تستعمل العبارة بطريقة ما لإثبات حجّة ما، وقد تكون بطريقة أخرى سببا في دحض نفس الحجّة.

6.خاتمة:

نصل في الختام إلى أنّ الحجج عند الجاحظ قد اتّخذت طابع النصوص الكاملة، سواء كانت قصصا أو حكايات أو أخبارا، والملاحظ عليها أنّها تتّسم بسمات الحجاج في كلّ صورها، كما يمكن تمفصلها إلى حجج مفردة، أو مركّبة، لتفيد غرضها وتحقّق غايتها.

والجاحظ في حجاجه ينوّع توظيفها، فينتقل من اللغة، إلى الصور البلاغية، إلى حجاج السلطة، إلى التمثيل، إلى الخبر، إلى المقولة، وقد يجمع كل ذلك، في صورة متناسقة تنمّ عن وعي كامل، وإدراك

عميق بما يجري، فضلا على أنّه قد يباشر في رسم حججه، وقد يبطنها، مع إشارة خفيفة يفهمها من تتبّع موضوعه وصوره.

تلعب اللغة الدور الأكبر في حجاج الجاحظ، لأنّه رجل أتقن اللغة، وأدرك أسرارها، وكان من الغيورين عليها، وعن مجدها، فتحكّم بها، ووظّفها في إدراك غاياته، وأقنع بها، وقد تتكشّف عند غيري غايات أخرى لم يصل إليها فكري، ولا أدركها جهدي، لأنّ جهد البشر لابدّ قاصر ومتجاوز .

7. قائمة المراجع:

المؤلفات:

ابن منظور. (1997م). لسان العرب. بيروت – لبنان: دار صادر.

الجاحظ. (1418هـ – 1998م). البيان والتبيين . القاهرة – مصر : مكتبة الخانجي .

الرازي. (1967م). مختار الصحاح . بيروت – لبنان: دار الكتاب العربي .

علي آيت أوشان. (2013م). ديداكتيك التعبير والتواصل وتدبير التعلّمات : الصورة – الحجاج – المقارنة – الوصف . الرباط – المغرب : دار أبي رقراق للطباعة والنشر .

كورنيليا فون راد – صكوحي. (2003م). الحجاج في المقام المدرسي . منوبة – تونس : منشورات كلية الآداب

محمد النويري. (2003م). البلاغة وثقافة الفحولة – دراسة في كتاب العصا للجاحظ . منوبة – تونس : منشورات كلية الآداب .

محمد عبد الباسط عيد. (2013م). في حجاج النص الشعري . الدار البيضاء – المغرب : إفريقيا الشرق.

المقالات:

حبيب أعراب. (يوليو – سبتمبر، 2001م). الحجاج والإستدلال الحجاجي – عناصر استقصاء نظري. عالم الفكر ، صفحة 99، 100 .